تحقيق

«حرش البلان» محتضرة «خ

عندما نقل «أبو سليم» نفوسه من بلدة فنيدق العكارية، إلى بلدته الافتراضية «حرش البلان»، كان يعتقد أنه يخلّص فرقته من الأمراض الطائفية والمناطقية التي تفتك بلبنان. نجح في ذلك، ليبني علاقة وطيدة مع أبناء وطنه، لكنه فشل في تجنيب أفرادها النهاية اللبنانية المحتومة. كأن «حرش البلان» تأبى مصيراً مختلفاً لنفسها عن مصير اللبنانيين، وأبناء مدينته الشمالية تحديداً

مهى زراقط

في 16 شباط الفائت، فارق أحمد الدنش، الشهير بـ«درباس» الحياة.
إذا استعرنا سخرية «فرقة أبو سليم»، يمكننا القول إن قلب الراحل لم يحتمل الفرحة بولادة الحكومة اللبنانية بعد عشرة أشهر من الانتظار، فتوفي في اليوم التالي لتأليفها. أو، بما أننا نحكي عنه بعد مرور شهر على رحيله، يمكن الإشارة إلى أنه غاب بين الجولتين التاسعة عشرة والعشرين من المعارك الدائرة بين باب التبانة وجبل محسن. هكذا أتيح له الحصول على حيّز في نشرات الأخبار، بخلاف الضحايا الاثنتي عشرة. الذين سقطوا في الأيام الأربعة الفائتة، فذُكروا أرقاماً تضاف إلى أرقام الذين سبقوهم.
مع وفاة «درباس»، فاضت مشاعر الحنين لدى الكثير من اللبنانيين، الذين كبروا على شخصية القروي البسيط يحاول تلمّس طريق الفن الذي كان مهووساً به. ففي عام 1967، لم يكن هناك برامج للهواة، تتيح للشاب أحمد الدنش النجاح، لكن فرقة أبو سليم أتاحت له الحصول على ألحان من الياس الرحباني. فغنى «ما طلّت سهام» و«لطيفة يا لطيفة»... وانتشرت الأولى مجدداً بالتزامن مع انتشار خبر رحيله، ثم اختفت. تماماً كما كان صاحبها قد اختفى منذ عقود، متخبّطاً في حلّ مشاكله المادية التي تسبّب بها دخول الرئيس العراقي الراحل صدام حسين إلى الكويت عام 1990. منذ ذلك التاريخ، ساءت أحوال «درباس» بعدما ضاعت بضاعته من الخشب في الكويت، وغرق في الديون «وكانت نهايته بشعة» كما يقول رفاقه الثلاثة: أبو سليم وأسعد وشكري.
هم ثلاثة، من فرقة تألّفت في بداياتها عام 1960 من 29 شخصاً، معظمهم قدم من طرابلس وجوارها. تختصر حكاياتهم، جزءاً من حكاية طرابلس منذ ثلاثينات القرن الماضي إلى يومنا هذا.

مهن رديفة

واقع طرابلس اليوم، هو الذي يجعل عبد الله حمصي (أسعد) يسارع إلى القول «يا حسرة» لدى سؤاله عن مدينته التي يعيش فيها منذ أكثر من سبعين عاماً. قبل أن يُقعده المرض في منزله منذ ثلاثة أشهر، كان أسعد يتوجّه في الصباح الباكر إلى منطقة الزاهرية ويجالس أصدقاءه. يتحدّثون، ويضحكون، ويختمون حديثهم بعبارة «من زمان ما ضحكنا هيك».
هذه ليست عبارة تقليدية يُختم بها حديث، وإلا ما تذكّرها أسعد وكرّرها ثلاث مرات. كأنها علقت في أذنه عندما قيلت أوّل مرة، فصار يحرص على أن يُضحَك أصدقاءه كلّما زارهم، كما أضحك اللبنانيين مع زملائه في فرقة أبو سليم قرابة خمسين عاماً. لكن من يطلّع على حياة أسعد اليوم، قد يبكي. يكفي أن تسمعه يقول «أنا مريض... أنا وقعت» لكي تشعر بالحزن. هو اليوم، قادر على تلقي الاتصالات، وبات يستطيع التنقّل في المنزل، بعدما تسبّبت له ذبحة قلبية بشلل مؤقت أقعده وجعل قدرته على الكلام محدودة.
عندما أصيب بالذبحة، انتشرت شائعة وفاته في حي القلعة في طرابلس، الذي يقيم فيه منذ عام 1953. هنا، الكلّ يعرفه باسم أسعد، ويدلّ على منزله «الملاصق لدكانه». الدكان يحمل اسم أسعد. وتبيع فيه زوجته (شقيقة أبو سليم) السكاكر والدخان «وفي الداخل سكر وحبوب» يقول أسعد ضاحكاً. لا نعرف إن كان يمزح أو يتكلم جديا. ما نعرفه، أن مهنته كممثل لم تمثل مورد رزق كافٍ له، ما جعله يلجأ إلى مورد آخر يساعده على تأمين تكاليف الحياة، وخصوصاً بعدما أقفل معمل صناعة القشدة (مهنة والده) الذي كان يديره عام 1973. ولم يندم في حينه، لأن عمله في التمثيل كان مزدهراً، قبل أن تنشب الحرب الأهلية و«ينضبّ كلّ واحد ببيتو».
كلّ أفراد الفرقة كانوا أصحاب مهن أخرى، منهم الموظف (شكري)، ومنهم بائع الأقمشة (سعيد)، والثياب (أبو نصرة)، وإن شاع أنهم كانوا نجارين، بما أن الأغلبية كانت كذلك. مع انطلاقتهم عام 1960، نشرت مجلة الصياد مقالاً عنهم حمل عنوان «نجارون من طرابلس نجوم تلفزيون في بيروت».

معظم أفراد الفرقة قدم من طرابلس وجوارها (أرشيف)

> كلما قدم شخص إلى طرابلس للعمل فيها كانوا يقولون خطي

النجارة مهنة من تراث المدينة الشمالية، وإلى اليوم، يقصدها اللبنانيون من مختلف المناطق ليوصوا على مفروشاتهم.
وقد وصل إليها أبو سليم بعدما يئس والده من تعليمه، لشدة ما كان مشاغباً في المدارس المختلفة التي تنقّل فيها. ولم يبق فيها إلا ستة أشهر قبل أن ينتقل للعمل في معمل عريضة للنسيج، بعدما حمل هوية ابن عمه الذي يكبره سناً ليسمح له بالعمل. وعندما صرف المعمل عدداً من العمّال عام 1948، حصل صلاح تيزاني (أبو سليم) على تعويض قيمته مئتا ليرة أتاح له أن يفتح محلاً للنجارة في خان العسكر. فوظّف «معلّماً» وعدداً من العمّال، وأداره من دون أن يتخلى عن هواية التمثيل. وعندما طاف نهر أبو علي نهاية عام 1966، خسر أبو سليم المحلّ والبضاعة، وأسسه من جديد.
عندما قرّر التفرّغ للتمثيل التلفزيوني، «وهب» المحلّ إلى العمّال الذين كانوا معه «على أساس رح صير مليونير»، لكن حلم الثراء كان بعيد المنال، إذ كانت الفرقة تتقاضى أسبوعياً بدل الحلقة مبلغ 250 ليرة، أي ألف ليرة في الشهر. وبما أن المبلغ لا يكفي حتى لدفع إيجار المنزل الذي استأجرته الفرقة في منطقة الكولا (1100 ليرة)، «صرنا نعمل حفلات بالمسارح والسينما»، من دون أن يغنيه ذلك عن العودة لاحقاً إلى مهنته الأصلية «فتحت غاليري موبيليا في عائشة بكار لأستطيع العيش».

فيضان النهر

يمرّ أبو سليم سريعاً على حادث فيضان نهر أبو علي، الذي يمثل مفصلاً أساسياً في تاريخ المدينة. بسببه، دمّر قسم كبير من المدينة لإمرار مشروع غيّر الكثير من معالمها، ومن علاقات القاطنين على ضفتَيْ النهر.
وبعد أقل من ثلاث سنوات على «الطوفه»، عاشت طرابلس خضة ثانية مع نشوب الثورة ضد الرئيس كميل شمعون في أيار 1958.
وتسجّل الدراسات الاجتماعية أن المدينة، كشفت بعد الفيضان وبعد ثورة 1958«هشاشة التغير والتحوّل اللذين عاشتهما المدينة خلال مرحلة الاستقلال الاولى». تبيّن أن الكثيرين لم يتخطوا انتماءاتهم الطائفية، وحصل فرز طبقي وطائفي جديد للمدينة غيّر فيها كثيراً.
ثورة لا تعجب أبو سليم، هو الذي يرى أن «طرابلس كانت منيحة بالخمسينات». يحكي عن عهد شمعون «الذي أسّس مهرجانات بعلبك الدولية». يروي كيف استقبل «فتى العروبة الأغرّ» وفداً من الفنانين الذين طالبوه بدعمهم عوضا عن دعم الفنانين الأجانب، فوافق ودفع لهم 100 ألف ليرة قائلاً لهم: «أروني ماذا ستفعلون، وإلا يا بنيشنكون، يا بنيشنكون». (أضع لكم النيشان، أو أُطلق الرصاص عليكم). وقد بقي الوضع جيداً حتى توقيع اتفاق القاهرة عام 1970.
تنشب الحرب بالطريقة نفسها كلّ مرة بحسب أبو سليم، هو الذي كان واعياً مرحلة الانتداب الفرنسي. القصة بكلّ بساطة هي تكرار للآتي: «كان الفرنسيون يشدّون مع آل المقدم، وكان الانكليز مع بيت كرامي... الغريب يحمّي أهل البلد بعضهم على بعض. طول عمرن هيك...». والتتمة أيضاً معروفة «غادر الفرنسيون من دون أن يكون هناك زعماء بل رؤساء عصابات». والدليل «دلوني إلى زعيم ما عنده قصر».
تلقت طرابلس حصتها خلال الحرب الأهلية، وخصوصاً في منتصف الثمانينيات. ولأسعد محطة مؤلمة مع الأحداث التي شهدتها طرابلس عام 1986. يتحسّر على أرشيفه الذي سرق من بيته في حي أبي سمرا. أما الأرشيف الباقي الذي كان مودعاً في مقر «فرقة الفنون الشعبية»، التي لا تزال تعمل إلى اليوم، فقد احترق بفعل القصف. لكن برغم كلّ ما سبق، ما يجري اليوم في المدينة «أصعب ما تعرّضت له» بحسب صلاح صبح (شكري). ثورة 1958 لم تستمرّ أكثر من سنة، وغيرها من الأحداث ايضاً، لكننا نعيش منذ ثلاث سنوات وضعاً لا نعرف كيف سينتهي. ما نعرفه أن الحياة في المدينة باتت صعبة كثيراً، بخلاف الماضي.

طرابلس أيام زمان

يكرّر شكري ما نحفظه من أهلنا عن التعايش

«العونة» في الطبابة!

يتحسّر أفراد «فرقة أبو سليم» على الأيام السالفة، التي كان الناس فيها يحبون بعضهم بعضاً، لكنهم شخصياً لم يفتقدوا «العَوْنة»، التي خبروها أخيراً لمساعدتهم على العلاج من الأمراض التي ألّمت بهم. فقد عانى ابو سليم، ابن الثمانين عاماً مرضا في عينيه، احتاج علاجهما إلى 25 مليون ليرة لم يكن يملك منها شيئاً. لا يتردّد في سرد كيفية تأمينه للمال: «كنت أحتاج إلى ثماني إبر، وفّر لي ابني عبر الضمان الاجتماعي اثنتين، وإبرتان من وزارة الصحة، ثم تبرّع لي رئيس مجلس إدارة قناة «الجديد» تحسين خياط بإبرتين، والرئيس نجيب ميقاتي بإبرتين».
أما أسعد، فيصمت طويلاً قبل أن يحكي كيف يؤمن كلفة علاجه. «بصراحة، كنت مرة في مستشفى هيكل، فرآني صاحبها، وقال لي أنت هنا ممنوع من الدفع، نحن من يجب أن يدفع لك ثمن السعادة التي أدخلتها إلى قلوبنا. لذلك، بتّ لا أدفع ليرة واحدة في المستشفى منذ عام 2010».
لكن، هل يكفي الفنانين انتظار المعونات

للحصول على طبابة؟ وماذا عن عشرات الفنانين الذين توفوا في ظروف مأساوية طاولت حتى مكان دفنهم. وقصص أبو سليم مع «نهايات» الفنانين لا تنتهي، يمكن اختصارها بعبارة: «شي ما بينحكى ولا بتنجاب سيرتو. يا عيب الشوم ع هالبلد».
لذلك، يكرّر أسعد الاقتراح الذي تقدّم به مرة إلى وزير الصحة سليمان فرنجية، وهو تأمين ضمان صحي للفنانين الذين عملوا أكثر من 25 عاماً، وخصوصاً «أننا نحن لنا مع الدولة. هي لا تقدّم إلينا شيئاً وتأخذ منا ضريبة على راتبنا، على الحفلة، وعلى بطاقات الدخول، ولا تقدّم إلينا شيئاً».